من الأدب الرمزي

في الطبيعـــة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

احتفلت الطبيعة لعيني العاشقة ، فخَـدَتْ أطفالَها جميعاً ، ووقفت تعاجبني بهم ، وأبرزت نهودها من جبالها ، وأرسلت شَعرها من حُورها ، ورقرقت خدها بماء النبع ، ومَوَّهته بدم الشفق ، وكللت جبينها بالزهر المنضور ، ومَشَقت قدَّها في رقص السرو ، وخرجت عليَّ بملء الضحى السابغ ضياءً وملء الليل الساجي نجوما ، ومشت تتهادَى على الحصى الملوَّن ، وتخطو على الجُدَد البيض والحمر ، وأخذت تغازلني بالنسيم الذي استروحتُ فيه بردَ قلبها لحر قلبي ... فسجدتُ أمامها بجسدي كله على الشوك والحصى في رحضن صخرة مشرفة على هوة . . ! وقلت لها : هل أنا إلا منك ياذات الشباب المتجدد أبداً ؟ يا أيتها الأم الولود الأكول الضاحكة المعولة . . . ياذات البطن البرَّاح الذي مما فيه البحرُ والدَّيمومُ بمجانبهما وولائدها . . . يا ذات الأثداء التي تَدِرُّ وتمتص . !

سأرتد إليك وأجرد نفسي من شعور الانفصال عنك ، وأقف في صفوف أطفالك صورةً من صور الجمال أو القبح كما تشائين .. وسأطلق أنفاسي مَوْجةً في هَبَـوات الريح ، وأصواتي نغمةً في النشيد الكبير الذي يملأ أسماع السموات والأرض . . وخطَـفاتِ ذهني مع وَمَضاتِ البروق . وسأضع جسدي لَبِنةً في البناء العام كالجبل والحصى الموضوع تحت السقف المرفوع ..

إني أخ كبير لأبنائك الذين تلدينهم مع ساعات الصباح والمساء ، أتلقفهم بعيني هاتين اللتين فيهما الإعجاب والرحمة للجمال والقبح ! عينيَّ اللتين وراءهما قلب خلقه الله أوسعَ منك وأعجب وأكثر ولادة . . . إنه يلد كل أبنائك ولادةً ثانية بمخاضها ورَضاعها وفِصالها ! ثم لا يرسلهم وينساهم فانين ضائعين كما تفعلين .. بل يبقيهم كلماتٍ تامةً دائمة مسجلة في اللوح المحفوظ ...

فاسأليهم .. اسألي الورد والشوك ، والحمل والذئب ، والورقاء والرقطاء ، والغراب والعصفور ، والنحلة والجُعَـل ، وسائرَ ما تلدين من الأعلى والأدنى : ألست أوالي عليهم نظرتي وفكرتي ؟ واسألي الشمس والنجوم : ألا أسافر معها سفراً غير زمنيٍّ فلا أيام فيه ولا ليالي . !

واسألي النهار : ألا أغتسل بأول قطرة من ضياء فجره إلى آخر قطرة من شفق غروبه ، وأسير معه في موكب الحياة العام أدِبُّ بقدميَّ على قارعة الطريق الممدود من أول الدنيا إلى آخرها . . ؟

واسألي الليل : ألا أجلس فيه متيقظاً أسترقُ السمعَ وألتقط الكلمات الخفية التي ينثرها في غفلة على الأجساد الهاجعة في موتها الصغرى ؟

واسألي البحر : ألا أُسْلِم إلى عرائس موجه جسدي يعبثن به ، وأملأ بصري بأفقه ولجه وزبده ، وسمعي بضجيجه وصخبه ، ويدي بقواقعه وأصدافه ؛ وأتوسع كثيراً كثيراً حتى أغطيه بروحي وأشربه بكأسي التي وراء حسي ؟

واسألي الصحراء : ألا أقف في محرابها الأصفر ، وأمسح عضلات جبالها التي أعياها الوقوف ، وأرقدُ قلبي على مهادها بجانب ذراتها الجامدة وأشواكها الحادة ؟

فيا أيتها الأم إني غير عاق في البنوَّة بيني وبينك ، والأخوة لأبنائك جميعاً مما علا أو سفل فأسبغي علي من شبابك الدائم ، واكشفي لي عن محاسنك المكنونة ، وعبقرياتك المضنون بها على غير أهلها ، وزاوجي بيني وبين بناتك العرائس الأبكار اللائي لم يَطمِثهنَّ إنس قبلي ولا جان ... واسكبي في قلبي من ذاك الاكسير المخلد الذي يجعلك دائماً أصبى من أولادك ؛ ولا تأكليني فيما تأكلين من بنيك أيتها الهرة ... !

* * *

وحينما تغضبين أيتها الأم ، فترأرين بحناجر الريح ، وتحطمين أبناءك بالقارعات العاتية ... وتثور أخلاطك فتقذفين الحممَ والشُّواظ واليَحْمُومَ من تحت ، والصواعق وحرائق البروق وجبال الثلوج من فوق ، وتنفضين ما على الأرض بالزلازل والمَيَدان ، فلا يسلم من يدك بعوضة ولا جمل ... وتفتحين فكَّيْك لابتلاع الحقول بمشيها وشجرها ، والمدن بمدرها ووبرها فتسدين الفجوات التي خلت في أحشائك ، وتشبعين

يوعك إلى العناصر بأكل أبنائك الذين يضجون وهم في الهول ن يديك بالثناء والرغاء ، والزئير والطنين ، والهديل والنعيب ، غيرها من أصوات الحيوان الأبكم . وبالدعاء والبكاء من الحيوان ناطق : ابنك البكر الذي دللته وعززته وأعطيته مصباحا مفتاحا زعم بهما أنه إلهك ! وجعل قضيتك كلها « معادلة برية » في نصف سطر من قلمه العجيب الذي يجعل الدنيا كلمات أرقاما ... ! حينذاك أحاول أيضاً أن أقترب منك في غضبك ري عبقرية الإماتة والتخريب فيك كما رأيت إبداع الايجاد التكوين ، ولأرى الدنيا صوراً من القبح والبشاعة والقسوة الفوضى كما رأيتها صوراً من الجمال والانسجام والنظام ...

* * *

ولكنك تحتجبين عنا حين تبدلين الثياب لتخفي عوراتك سوآتك وشناعاتك ، فتقتلين كل ذي عين حتى لا يراك فيقسم لا يقترب ولا يعشق ولا يفنى في مظاهر خداعك وطلاء حقيقتك، ترسلين نارك التي تحرق دائما ، وماءك الذي يغرق دائماً ، وقوارعك ي تحطم دائماً . . . فلا مطمع لأحبابك في رشوتك بالحب الشعر ، ولا محسوبية ولا شفاعة أمام قوانينك الصارمة . !

* * *

وهأنذا أبحث عن حرز حريز فيما وراء يدك المخربة ، أخط ه قبري وأختبيء فيه وأرصد منه دائماً حركة التجدد ورجوع شباب والجمال إلى دياجتك ، واحتفالك لغير عيني من عيون شباب الشعراء المقبلين . . . وهم يسكبون في سمعك ما أسكبه آن من كلمات الهوى والنزل .. ويقولون لك : « ياذات الشباب تجدد . . اسبغي علينا من شبابك وأرضعينا يا أمنا من إكسير لخلد . . . » فأناديهم من مكاني البعيد الذي لا سلطان لك عليه ئلا : أيها الطامعون في الخلود مع هذه العجوز المتجددة ... تطمعوا أن تعطيكم ما بخلت به على من قبلكم من بنيها ... إنها تسمح لأحد بالبقاء الكثير حتى لا يجتويها ويكفر بجمالها ، فابحثوا ن مثل هذا المكان الحرير الذي أناديكم منه ... واقنعوا أن كون حظ أحدكم منها قبراً معلوماً في القبور ، يقف أمامه أبناؤها لاحقون ويشيرون إليه قائلين : هنا يرقد قلب شاعر عرف أمنا مكان يشترى فيها الحبر بالذهب ... فاسكبوا على قبره كأساً منه .. !

عبد المنعم مهدوف

أطفال الطبيعة

للأستاذ محمد عبد اللطيف السحرتي

لم تكن إلا زقزقة العصافير تطوف بأثير نفسي ، وأنا عائد إلى البلدة في طريق الحبيب الذي تحتضنه أشجار الكافور الخضراء الفارعة — لم يكن أعذب لنفسي من زقزقة تلكم العصافير التي مازجت أصواتها أحلامي ، وأنعشت ألحانها إلهامي — في هذه الساعة السعيدة طابت أحلامي ، ونبل حديثي مع نفسي ، ولم يكن يهزني إلا مرأى الفلاحين المساكين ، وهم يكدحون حول الوادي في صبر وقناعة وأحلام مضطربة ... ثم تعاودني أصوات العصافير فتمحى مادوم بنفسي من هزات الأسى ، وتنقل إلى شعورها الفرح ، وتبعث في سعادتها البريئة .

يا إلهي ، لكأنك خلقت العصافير للطبيعة أطفالاً كما خلقت للناس أطفالهم ! وشتان بين أطفالها وأطفالنا ! فأطفالها في طفولة خالدة ، وأطفالنا بعد عمر قصير يكبرون ، فتنداح براءتهم وتمحى شفافة نفوسهم !

هؤلاء الأطفال الخالدون يُنَبِّلونَ انفعالاتنا ، ويطهرون نفوسنا من هموم الأعمال اليومية ، ويخلقون لنا جواً روحياً ساجياً ينعم في بحبوحته الأدباء والشعراء ، ويلقون علينا دروساً روحية ثمينة . ولقد ألقت عليَّ عصفورة درساً خلقياً بليغاً ، وأنا في حديقة « مونسو » البديعة بباريس ، عند ما كنت ألقي لها فتات الخبز ، فكانت وهي تتناوله تنادي أخواتها لتشاطرها الغذاء ، وهذا درس في الايثار يلقيه علينا هؤلاء الأطفال الكرام

ولكم أحب الأدباء هؤلاء الأطفال الأغرة ، ومن بين هؤلاء الأديب الفرنسي كوبيه في قطعته « موت العصافير » التي يُظهرُ فيها إشفاقه عليها ويبدي تخوفه من مفاجأة الموت لها في الشتاء ، ويسائل في انفعال وهزة : « هل العصافير تختفي لتموت ؟ » .

والذي نعلم أن العصافير تختفي في مكان أمين ، وأنها في الجو الطليق تجد أمانا من الموت ولا تخشاه ، وإنما هي تخشى الانسان ، وهي إذ تمرح في أمن وإيمان ، وتحمل الغذاء في كل مكان ، وتستقبل الشمس في الصباح وتودعها في الغروب ، إنما تحمل للانسان رسالة الفرح والبراءة والجمال ، والحياة الطويلة ، إن لم أقل الخالدة !